الأسد؛ خَشيةَ معرفةٍ أو مَحْمَدةٍ عاجلةٍ تهوي بهم في رياءات الدُّنيا وسفالاتها !!، فعاشوا وَجَدُّوا وجاهدوا وكابدوا المشاقَّ في خَفاء، وسارعوا وبذلوا وقدَّموا وتفانوا في العطاء؛ يَصدُق فيهم قول نبيِّهم ﷺ: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيِّ [1]، الْخَفِيَّ)[2]، فرفعةُ الصادقين في إخلاصهم، وبلوغُ الواصلين مِن خفائهم .. واتِّخاذُ الشُّهداء يجمع ذلك كلَّه.

إنَّما فَضْلُ هذا القَبَسِ الآسر .. أنَّه شاهدُ حقٍّ، وناقلُ صدقٍ لِمَنْ عاش في دروبه، وذاق أنواع كُروبه، عاش إعداده ورَصْده وجهاده حتى استشهاده؛ فأدَّاه كما عاشه، وبلَّغه كما شاهده وسمعه، إذ هو نَسمةٌ مِن رياح الصَّادقين، وقطفةٌ مِن نزالات المجاهدين، وبركةٌ مِن يقين المرابطين على معالم الدُّنيا والدِّين، تنزَّلتْ عليهم رحماتُ ربِّهم في معاقدهم، وحفَّتهم ملائكُ خالقهم في بسالتهم، فأيُّ نعيمٍ عاشوه، وأيُّ ملاذٍ ذاقوه!، وأيُّ نصرٍ حقَّقوه؟!.

عشتُ مع هذا القَبس المُرشِد المبارك منذ بداية تقييده الأوَّل، فتلقَّفه بشوقٍ عقلي وقلبي قارئاً مُتلهِّفاً مُتعطِّشاً لكلِّ خبرٍ وكلِّ كلمةٍ فيه، أقرأ تارةً واقفاً، وتارةً قاعداً، وتارةً في الطَّريق، وتارةً قبل النوم.. وهكذا، قرأتُه ثلاثَ مراتٍ وما شَبعْتُ منه، أُسارق الوقت لمُعاودتِه مرةً بعد مرة، وأُمَنِّي النَّفسَ العيشَ في أحداثه، ودخولَ مشاهدِ أجوائه، فَتَعجَبُ نفسي مرةً، وتفرحُ تارةً، وتحزنُ أخرى، وتبكى مُرَّاً، وتطير بفكري سِرَّا !.

أيُّ شيء هذا الذي يحدث؟، وأيُّ رجالٍ هم؟، وأيُّ عِيشةٍ عاشوها؟، سبحان ربي جلَّ شَأنُه في سُنن كونه، كيف يُدبِّرها ويُنزِّلها على أحسن تقدير، مع رعايةٍ حفيفةٍ لأوليائه، ومهانةٍ شديدةٍ بأعدائه!، واهٍ لفخامة هذه المشاهد والصُّور، يشدُّك كلُّ جزءٍ منها لشيءٍ، وأيُّ شيء؟!.

(1) المراد بالغنى غني النفس، هذا هو الغني المحبوب، لقوله صلى الله عليه وسلم: «ولكن الغنى غنى النفس».
(2) صحيح مسلم، حديث رقم 2965.